

آدم عبد الله الإلوري
مؤسس مركز التعليم العربي الإسلامي
أغيغي - بنيجيريا

مكتبة وهبة

آدم عبد الله الإلوري
مؤسس مركز التعليم العربي الإسلامي
أجيجي - نيجيريا

آثار المغاربة في نشر الإسلام والعربية في غرب أفريقيا

(محاضرة ألقيت بالدروس الحسنية
في رمضان ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)



مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين بالقاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

قال الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ
وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن
قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ
لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

صدق الله العظيم .

وفي حديث الرسول عليه الصلاة والسلام :

«أمتي أمة مباركة لا يدري أولها

خير أم آخرها» السيوطي في الجامع الصغير .

«لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق

حتى تقوم الساعة» رواه مسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بسم الله وكفى وصلواته على النبي المصطفى ، وبعد فلما استلمت الدعوة الكريمة من السادة الملكية السامية عن طرف وزارة الأوقاف الغالية إلى السفارة المغربية بلاغوس للاشتراك في هذه الندوة العالية ، استبشرت بها على أني سوف ألتقي بالنخبة الممتازة من رجال الدعوة والصفوة المختارة من حملة الثقافة العربية ، وسوف أستمع إلى خطبهم الرنانة ألتقط فيها ،

من كل معنى يكاد الميت يسمعه

حسنا ويعشقه القرطاس والقلم

ثم إني اغتممت حيث علمت أنه سيطلب مني إلقاء كلمة أو كلمتين كما طلبوا إلى المدعوين مثلي ، فسرحت بخاطري في الموضوعات التي أحسب قطوفها دانية ، وكلما أمسكت موضوعا ثم بدأت أجيل النظر فيه ذاب مني كما يذوب الملح في الماء ، وبقيت كذلك أيامًا ، ثم استعنت بالله تعالى على أمري ، وأخيرًا

هداني ربي إلى اختيار هذا الموضوع «آثار المغاربة في نشر الإسلام والعربية بغرب أفريقيا» لست أستطيع أن أوفي الموضوع حقه من الاستيعاب ولكني اخترته لكي ألفت أنظار الأعلام إليه وهم الذين يقتدرون على أن يعطوه ما يستحقه من العناية الكافية حتى يصبح في متناول الأقاصي والأداني .

نعم إن القول بأن الإسلام قد انتشر من المغرب إلى السودان الغربي قد أصبح قضية مسلمة لا نزاع فيها ، ولكننا نقول ذلك دون أن نعرف أسماء الذين حملوا لواء الدعوة عن كثب حتى انتشرت في تلك الجهات . ويتحتم على الطرف المغربي وعلى الطرف السوداني معًا أن يعرفوا ذلك، على الطرف المغربي أن يعرفوا أسماء نوابهم وخلفاءهم على الدعوة في السودان كما يفعل التبشير الصليبي الذي ألزم على نفسه إحصاء الكنائس الصغرى والكبرى التابعة لها في سائر أنحاء العالم ، فالكاثوليك والبروستانت والأنجليكان وغيرهم يعرفون أسماء المبشرين الذين مضوا والذين تبقوا إلى اليوم ، ويعرفون تواريخ كنائسهم متى أنشئت وما هي التطورات التي مرت عليها ، وكذلك يجب على مشائخنا المغاربة إحصاء مثل ذلك بدورهم ليعرفوا قومهم وليتفقدوا أحوالهم الفينة بعد الفينة ، وكذلك يجب على الطرف

السوداني أن يعرفوا آبائهم في الدين كما عرفوا آبائهم في النسب ، وقد قال النبي الأعظم « تعلموا من أنسابكم قدر ما تصلون به أرحامكم »[1].

يقول ابن المبارك : إن الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء ، وعن الإمام الشافعي أنه كان يقول : دأبت على قراءة علم التاريخ كذا وكذا سنة وما قرأته إلا لأستعين به على الفقه[2] ، ولا يعرف صحة النقل إلا بالإسناد الصحيح ولا يعرف الصحة في الإسناد إلا برواية الثقة عن الثقة والعدل عن العدل ، لذلك يجب على علماء غرب إفريقيا أن يتتبعوا آثار علماءهم المغاربة حتى يعرفوا إسنادهم في روايتهم سنن النبي وأقواله وأفعاله حتى يمكنهم أن يقولوا أسلمنا على فلان وتلقينا العلم عن فلان وسمعنا عن فلان وهو عن فلان حتى ينتهي الإسناد إلى رسول الله ﷺ ، هذا وإني قد قسمت موضوع الكتاب إلى : المقدمة في كون الإسلام دينا ودولة منذ اللحظة الأولى ، ثم :

المبحث الأول في الآية والأحاديث التي ينطلق منها البحث .

فالمبحث الثاني في آثار المغاربة في نشر الدعوة .

---

(1) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير .
(2) مقدمة الاستقصاء للناصري .

فالمبحث الثالث في آثار المغاربة في نشر الثقافة .

فالمبحث الرابع في الفرق بين الحركة السلفية في المشرق والسلفية في المغرب ، فالمبحث الخامس فيما بين محمد ابن عبد الوهاب وعثمان بن فودي .

ثم الخاتمة في مقترحاتي حول تجديد العلاقات والآثار بين المغرب ونيجيريا .

مقدمة

كون الإسلام دينا ودولة

بسم الله وصلى الله على خير خلق الله وبعد .

أستهل حديثي بقول الله عز وجل في قصة ملأ من بني إسرائيل حيث قال حكاية عنهم ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:٢٤٧) . صدق الله العظيم .

كانت الدعوة الإسلامية التي انطلقت صيحاتها الأولى بين أرجاء بيت الله الحرام في مكة المكرمة أبا رحيما للدولة التي قامت في المدينة المنورة بعد ثلاثة عشر عامًا من بداية تلك الصيحات ، جمع نبي الإسلام بين الدعوة والدولة وقد وضع أساسهما ووطّد أركانهما في خلال عشر سنوات ، وكانت عظماء قريش يتعجبون من ذلك وظلوا يتخافتون فيما بينهم ويتساءلون لم هذا وكيف ذلك ؟ حتى رد الله عليهم في الآية الكريمة ﴿ **وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ**

هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: ٣١،٣٢) . صدق الله العظيم .

انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد أن ترك الإسلام دينا ودولة في يد الخلفاء الراشدين ، وكان النبي ﷺ في أيامه رئيس الدولة الإسلامية وقائد جيشها وقاضي محكمتها الكبرى وإمام جامعها في الصلاة ومدير جامعتها في التعليم ، وكان لا يحمل لقبا خاصًّا لذلك كله ، ولا يرضى بوصف دون أن يسمى نبي الله أو رسوله إذ قال يومًا لسيدنا عمر إنها ليست كسروية ولا قيصرية يا عمر وإنما هي نبوة لا ملك .

ذهب النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى فذهبت معه النبوة وبقيت الدعوة والدولة ولم يلتزم رئيسها لقبًا ، ولما جاء سيدنا أبو بكر اختار لقب خليفة رسول الله ثم جاء سيدنا عمر فاختار لقب أمير المؤمنين .

وتبعه في ذلك سيدنا عثمان وسيدنا علي رضوان الله عليهم أجمعين ، وكانت الدولة الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين دينا ودولة ، ومن أجل الدعوة كانوا يعقدون لواء الجهاد لمحاربة الجهل بنشر العلم وفتح الجوامع والكتاتيب ، ولمحاربة المرض

بفتح الملاجئ والمستشفيات ، ولمحاربة الفقر بجمع الزكاة والغنائم وتوزيعها بين فقراء الأمة .

ثم جاء الخلفاء من بني أمية فانقلبت الدولة على أيديهم مَلَكية، فصارت الدعوة جزءًا من الدولة ، فانحاز الدعاة الأحرار في حيز مستقل ، فانضم الدعاة الآخرون في موكب الدولة ومع ذلك لم تترك الدولة أمر الدعوة تمامًا ، بل استمرت في إرسال الدعاة إلى البلاد مع الفتوحات التي تمكنت في شمال أفريقيا إلى اليوم ، ظل الأمر كذلك حتى جاء الخلفاء العباسيون ثم جاء الخلفاء الأعاجم من آل سلجوق والأتْراك في المشرق والفاطميون والموحدون والحفصيون في المغرب ، هذا ولم يلتزموا لقبا معينا من ألقاب الولاية والرئاسة ، فتارة يلقبون بالخليفة وطورا بالسلطان وحقبة بالملك وحينا بالإمام ، ذلك لأن الإسلام لا يلتفت إلى الأعراض والمظاهر وإنما يهتم بالجواهر والمكامن أو لا يبالي بالأسماء وإنما يعتني بالمسميات ، فلا جرم إذا وجدنا اليوم في البلدان العربية الإسلامية دُوَلاً عديدة تختلف ألقاب ولاتها ، ففي مصر والعراق مثلاً رئيس الجمهورية ، لأن النبي ﷺ رئيس الدولة وإن اكتفى بصفة النبي أو الرسول ، وفي السعودية والأردن والمغرب ملك المملكة ، ذلك أن الله قد جمع بين الملك والنبوة للذين مضوا من الأنبياء ، ولو كانت صفة الملك مذمومة لما اختارها الله

لبني إسرائيل من طالوت فداود فسليمان ، ومما نحمد الله عليه للدولة الإسلامية بالمغرب أنها كانت ولا تزال على منهج الخلفاء الراشدين ومنهج المصطفين من الخلفاء الأمويين والعباسيين في تكفل أمر الدعوة إلى جانب الدولة .

فهذا هو جلالة الملك الحسن الثاني يسير على منهج أسلافه في العناية بنشر العلم والقرآن والحديث بتأسيس دار الحديث الحسنية ، وهو يسير على منهج أسلافه في احترام العلماء والفقهاء ورجال الحديث ، ويسير على منهج أسلافه في الاستماع إلى دروس الدين والقرآن والحديث من فحول العلماء في كل عام في رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، سدد الله خطاه وأعانه على ما أولاه .

أما الكتاب فإني أوجزه في خمسة مباحث تعقبها خاتمة كالآتي :

المبحث الأول

الآيات والأحاديث
التي ينطلق منها موضوع الكتاب

إن مستندي عند تتبع آثار المغاربة في نشر الدعوة والثقافة في نيجيريا بين الأمس واليوم يتلخص في قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(الجمعة: ٢،٣) .

اتفق جميع المفسرين على أن المقصود بالأميين هم العرب جريًا على ما كان اليهود يطلقونه على غيرهم ممن ليس لهم كتاب منزل وأولهم العرب حينذاك ، وبالتالي من كان كذلك من غير العرب ، ولإثبات أمية العرب جاء الحديث النبوي الشريف : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» ، ولما أراد الله رفع الأمية عن الأمة العربية بعث فيهم رسولاً منهم،وأنزل عليه الكتاب وأمره أن يتلوه عليهم وعلى غيرهم من الأمم الأخرى التي لم ينزل فيهم

الكتاب ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ وقال في شأن غير العرب ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الأنعام:٩٢) .

فكانت رسالة النبي العربي عالمية ، ولم تقتصر على العرب كما اقتصرت رسالة سيدنا موسى وعيسى على بني إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ:٢٨) .

أما تفسير ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ فقد اتفق المفسرون أيضًا على أن المراد بهم كل من أسلم من غير العرب من العجم على اختلاف أجناسهم إلى يوم القيامة ، ويقول ابن كثير في تفسيره : روى الإمام البخاري عن أبي هريرة أنه قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ ، قالوا من هم يا رسول الله فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثًا وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله يده على سلمان ثم قال « لو كان الإيمان عند الثريّا لناله رجال من هؤلاء »[(١)] . هذا

(1) ٣٦٣/٤ رواه مسلم والترمذي .

فيما يتعلق بأعاجم الشرق ، أما أعاجم الغرب فقال مجاهد : كل من صدق النبي من غير العرب ، وسمعت من أحد مشائخنا أثرًا من الآثار لم أقف حتى الآن على تخريجه ، ولكن معناه صحيح يناسب المقام هو ما قيل : أحبوا السودان لأن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن أو كما قالوا ؛ لهذا وذاك تقرر أن قبائل البربر والزنوج الذين دخلوا في الإسلام بالتبعية مع الصحابة العرب الذين نشروا الإسلام في شمال أفريقيا وغربها يندمجون في جملة ﴿ **وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ** ﴾ ، وإذا وجدنا في مصر أقباطًا أخذوا الإسلام من أيدي الصحابة العرب فانقلبوا بعد ذلك دعاة للإسلام يحملون لواءه إلى من يجاورهم فقد دخلوا بذلك في ﴿ **وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ** ﴾ وإذا ألفينا في بلاد الفرس أقوامًا من بني ساسان وبني إيران وطوران من تلقوا الدعوة من الصحابة وحملوها ونشروها بدورهم بين قومهم فقد انتظموا مع سلمان الفارسي في عداد ﴿ **وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ** ﴾ ، وإذا أدركنا في بلاد البربر في شمال أفريقيا وغربها أخلاطًا من مختلف الأجناس اعتنقوا الإسلام على أيدي الصحابة ، ثم صاروا بدورهم حماتَه يذودون عن بيضَتِه ويبلغونه إلى حيث وطئت أقدامهم في الصحراء وجنوب الصحراء إلى الغابات والمستنقعات ، فإنهم بدورهم يندمجون في حساب ﴿ **وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ** ﴾ .

فخلاصة القول في ذلك أن قبائل العرب الذين سكنوا شمال أفريقيا وغربها قبل ظهور الإسلام فأسلموا من الفينقيين والقرطاجنيين واليمنيين من الصنهاجيين والبرابرة ومن يليهم من الوناغرة صاروا بعد إسلامهم حملة الإسلام من الشمال إلى الغرب ولا تزال آثارهم واضحة ملموسة في تلك الجهات إلى اليوم .

أما ما يساند هذا الموضوع من الأحاديث فكثيرة ، منها حديث « أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره » وفي رواية أخرى « أمتي أمة مباركة لا يدري أولها خير أم آخرها »[١] وحديث « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة »[٢] وحديث « بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء »[٣] .

لا يتسع المجال لسرد معاني هذه الأحاديث بالتفصيل ، وإنما نكتفي بالمعنى الإجمالي من حيث كون هذه الأحاديث جملة دليلاً وسندًا لكون العرب من الأميين الذين بعث الله فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

(1) أخرجه السيوطي في الجامع .
(2،٣) رواه مسلم .

ثم لكون أجناس البربر في شمال أفريقيا وغربها من الآخرين الذين لما يلحقوا بهم ، ثم لكون علماء المغاربة من أهل الغرب الذين لا يزالون ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة .

وأن الإسلام لما بدأ غريبًا قام الغرباء الأولون بنصرته ، وإذا عاد غريبًا من جديد يقوم الآخرون بنصرته ، فطوبى للغرباء الذين نصروه أولاً وآخرًا ، وربما نستأنس في هذا بقول امرئ القيس :

أجارتنا إنا غريبان هاهنا

وكل غريب للغريب نسيب

ويقول البوصيري في همزيته :

وسلَوه وحنّ جِذعٌ إليه

وقلَوه ودّه الغرباء

وأن الذين ينصرون الإسلام اليوم في كل مكان هم خير أمة أخرجت للناس كما كان الذين نصروه أولا خير أمة أخرجت للناس وهم كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره .

المبحث الثاني

آثار المغاربة في نشر الدعوة الإسلامية بنيجيريا وغرب أفريقيا بين الأمس واليوم

لا نكاد نخوض غمار هذا الموضوع دون ذكر الدول والحكومات التي فتحت البلاد ، ومهدت السبيل للدعاة المتطوعين من الأفراد والجماعات على طول الطريق منذ فجر التاريخ الإسلامي إلى الوقت الحاضر ، ويستنبط الباحث من الأساليب التي ارتسمها الدعاة المغاربة في نشر الدعوة بتلك الأرجاء نماذج في نشر الدعوة اليوم في تلك الأرجاء وغيرها من الأنحاء ، فليقرأ الباحث هذه السطور بتفكر وإمعان النظر فيما يلي ليجد ما قلنا فلنبدأ ونقول :

الدفعة الأولى هي أول دفعة إلى شمال أفريقيا بعد فتح عقبة ابن نافع للأقاليم ، وهي التي بعثها عمر بن عبد العزيز الأموي من المدينة إلى شمال أفريقيا لنشر الدعوة فيها عام ١٠٠هـ ، حيث عيَّن إسماعيل بن عبد الله واليًا على شمال أفريقيا وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين ليفقهوا البربر في أمور دينهم ، لم أقف

على أسماءهم بالتفصيل فاكتفيت بما سمح به التاريخ الإجمالي حسبما اكتفى به المصدر الذي استقيت منه معرفتي[١] .

الدفعة الثانية هي الموجة التي دفعها عبد الله بن ياسين الذي درّب ألفًا من الدعاة على تعليم علوم الدين ، وأمرهم أن ينقلوا الإسلام وعلومه إلى غيرهم من البرابرة والزنوج ، وأوصاهم بقوله اخرجوا على بركة الله تعالى وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا في عيهم ولجوا في طغيانهم استعنّا عليهم بالله وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا[٢] .

وهكذا بدأ المرابطون يدعون البربر والزنوج وسائر القبائل إلى دين الإسلام حتى أقاموا الدولة في مراكش على يد يوسف ابن تاشفين الذي أنشأ مدينة مراكش ١٠٦٥م واتخذها عاصمة الدولة المرابطية ، ثم انقسمت دولة المرابطين إلى ثلاثة أقسام ، قسم حكم في شمال أفريقيا وهي التي بقيت آثارها حتى اليوم في مراكش ، وقسم آخر حكم في أسبانيا ثم توزعت بين ملوك الطوائف هناك ، وقسم ثالث حكم في غرب أفريقيا بقيادة أبي بكر بن عمر الذي استمر في جهاده مع البربر وسائر قبائل الزنوج حتى اكتسح جهاده سائر بلاد غرب أفريقيا إلى حدود الكونغو ، وأخيراً استشهد في إحدى غزواته هناك فذابت دولته هذه بين دول غانة ومالي وسنغاي وتكرور وتوزع دعاتها بين أطراف تلك النواحي ، ثم بقي الإسلام ينتشر بقوته الذاتية على

(1،٢) توماس أرنولد الدعوة إلى الإسلام ص ٣٥١ .

أيدي الدعاة المتطوعين من الصنهاجيين والبرابرة ، ثم الطوارق الملثمين الذين صاروا خلفًا للبرابرة في نشر الدعوة إلى غرب أفريقيا ، وكانت عاصمتهم غُدامس جنوب طرابلس ، وقد لعبوا دوراً عظيمًا في نشر الدعوة بتلك الجهات حتى صار أكثر الناس يتسمون بأسماء غُدامسيين إلى اليوم في بلاد هوسا وبلاد يوربا ، ومما بقي من ذلك اسم رئيس الحكومة العسكرية الخاضرة بنيجيريا إبراهيم غدامسي ببَانغدا ، ثم جاء دور الوناغرة في نشر الدعوة وهم شعب عظيم سكنوا بين غانة ومالي ، وهم الذين نشروا الإسلام في بلاد كاتشنة وبلاد كانوا المشهورتين ، يقول الدكتور حسن أحمد محمود في كتابه ، انتشار الإسلام بغرب أفريقيا : جاء في تاريخ مدينة كانوا أن فريقًا من الفقهاء الوناغرة يزيدون على أربعين رجلاً وفدوا من كاشنة إلى كانو ودعوا أهلها إلى الإسلام حتى أسلم ملكها وأسسوا بها مساجد يعلمون الناس فيها الإسلام[1] عام ١٣٥٠م .

وهؤلاء الوناغرة قد تلقوا علومهم من المغاربة في صدر الإسلام ومن أشهر العلماء الوناغرة الشيخ محمد بن محمد ابن أبي بكر الونغري الشهير ببغيغ وهو أحد الأخوة الثلاث المنتسبين إلى الوناغرة ، ولا شك في كون أول من دعا إلى الإسلام في بلاد يوربا من أولئك الوناغرة حيث ذكر توماس أرنولد[2] من كتابه الدعوة إلى الإسلام أن أول داعية دخل مدينة

(1) انتشار الإسلام بغرب أفريقيا ص ٢٢٩ .
(2) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٥٥ .

إيفي عاصمة بلاد يوربا الوثنية في أقصى جنوب النيجر إلى ناحية الغابات قرب المحيط في القرن الثاني عشر الميلادي وكان يظنه من الهوسا والحقيقة أنه من مالي .

ويروي السعدي في كتابه « تاريخ السودان الغربي » أن كُنبرو ملك مدينة جنى قرب تمبكتو قد أسلم حوالي ٤٠٠هـ - ١٠١٠م ، وجمع يوم إسلامه أربعة آلاف ومائتي عالم في مملكته وأعلن إسلامه أمامهم وطلب إليهم أن يدعوا الله له كي ينصره ، ثم جاء دور البرناويين والنوفاويين في نشر الدعوة ، وهما شعبان عظيمان منحدران من البربر والنوبة اللذان نزحا من أعالي مصر إلى بلاد يوُربا ونشروا فيها الإسلام . وكان للنوفاويين مساجد في مدينة عويوإيلي عاصمة بلاد يوربا القديمة حوالي ١٥٥٠م ، وكان للعلماء نفوذ قوي على ملك يوربا ، حيث كان الملك يعتمد عليهم ويستعينهم على قضاء مآربه والنصر على أعدائه واستنزال الغيث أيام القحط ، وقد سكن البرناويون البرابرة مدينة إِيوو بالقرن العاشر الهجري ونشروا فيها الإسلام وعلومه في عهد مَلك الاهوسَا وانِيْدَي ولامُوييي ، وفي ذلك العهد ألف أحد العلماء الكشناويين كتابين[1] اثنين في أخبار بلاد يوربا أولهما « أزهار الرُّبا في أخبار بلاد يوربا » وثانيهما « شفاء الرَّبا في أخبار فقهاء يوربا » وذلك حوالي ١٠٧٠هـ .

---

(1) وهو العالم محمد بن مَسَنِي البرناوي الكشناوي .

المبحث الثالث

آثار المغاربة
في نشر الثقافة العربية الإسلامية بنيجيريا

هذا الموضوع توأم الذي قبله ، إذ لا توجد الدعوة الإسلامية بدون وجود الثقافة العربية ، ولا يكاد المسلم يعتنق الإسلام حتى يتبادر إلى معرفة مبادئه الضرورية التي يؤدي بها صلواته اليومية من قراءة الفاتحة وسور قصار من القرآن وما يليها من تشهد وتكبير وتهليل باللغة العربية التي لا تقبل لها بديلا في اللغات الأخرى ، وكانت كلمة العَالِم في بداية الأمر صفة تطلق على من يقرأ ويكتب إلى جانب ما يحفظ من آيات القرآن وأحاديث النبي، هكذا كان الصحابة الذين وصفهم النبي بقوله « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[١].

وكما وصفهم بقوله « لا تسبوا أحدًا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »[٢].

وكان هؤلاء الصحابة متفاوتين في درجاتهم العلمية ، منهم من يحفظ القرآن كله وهم قليل كزيد بن ثابت وأبي بن كعب

---

(1) لم أقف على تخريجه .
(2) رواه الأربعة .

وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري ، ومنهم من يحفظ نصفه ومنهم من يحفظ بضع آيات وسور قصار ، ومنهم من يروي آلاف الحديث عن النبي ﷺ وهم قليل كأبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن عمرو بن العاص وجابر بن عبد الله وسيدتنا عائشة رضوان الله عليهم أجمعين ، ومنهم من يروي بضع مئات وبضع عشرات ، ومع ذلك فهم هداة الأنام ومصابيح الظلام والسابقون الذين لا يدركهم اللاحقون رضوان الله عليهم . ثم جاء بعدهم التابعون على اختلاف مستوياتهم كذلك ، ثم جاء الفقهاء المجتهدون ، ثم جاء من بعدهم النحاة والأدباء والبلاغيون واللغويون وهلم جرا ، ومن ثَمَّ صارت كلمة العالم صفة لمن أخذ من كل فن بنصيب .

فلا جرم إذًا إن لم يلمع في سماء غرب أفريقيا نجوم وأعلام من الأدباء والكتاب في القرون الأولى من ظهور الإسلام فيها إلى أن قامت الدول والحكومات ، واستوت الدعوة الإسلامية على ساقها ، ومن ثَمَّ بدأ يظهر الأعلام في كل فن من فنون العلم في الإسلام ، ويقول شكيب أرسلان :

أما انتشار العلوم والآداب في المغرب فكان بطيئًا في البداية بسبب مقاومة البربر لها ولكن بعد أن شيدت المدارس والمساجد في القيروان وبجاية وتلمسان ظهر فيها نوابغ[١] .

---

(1) حاضر العالم الإسلامي ص ٣٦٣ .

أهم مراكز الثقافة العربية المغربية التي تأثرت بها نيجيريا

هي مدرسة القيروان التي أسسها عقبة بن نافع ، وجمع فيها الصنهاجيين لتعليم الإسلام حوالي ٤٠هـ ، ثم جاء بعدها مدرسة فاس المشهورة بجامعها ومنها تخرج الوناغرة الملثمين الذين أسسوا جامعة سُنكري بتمبكتو .

ومما يحكى من ذلك ما جاء في كتاب أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا للعميد محمد عبد الفتاح إبراهيم[١] .

إن منسا موسى سلطان مالي لما حج عام ٧٣٤هـ - ١٣٤٤م أحضر معه من مكة عالمًا عربيا ليتولى التدريس في جامعة سنكري في مدينة تمبكتو ، ولكن الرجل وجد بها أعلامًا أكثر دراية بالعلم منه ، فتوجه إلى مدينة فاس وبقي بها ثلاث سنوات يتعمق في العلوم قبل أن يستطيع العودة إلى تمبكتو ليبدأ التدريس فيها[١]، كما يحكى أن مدينة جنى التي أسلم ملكها كُنبرو عام ٤٠٠هـ وجمع يوم إسلامه أربعة آلاف ومائتي عالم في مملكته وحدها ليس يخلو هؤلاء العلماء من المغاربة الذين نزلوا المملكة لنشر الثقافة الإسلامية فيها ، والجدير بالذكر أن

---

(1) أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا ص ١٠٥ .

منسا موسى السالف الذكر كان حفيدًا لماري جاطه «سندياتا» الذي كان أول ملوك مالي المسلمين وكان يحب العلماء وكان بينه وبين حفيده حوالي مائة عام .

ابن بطوطة

زار ابن بطوطة بلاد غرب أفريقيا بعد أربعين سنة من مرور منسا موسى على مصر في طريقه إلى الحج وبعد زوال المرابطين بنحو قرنين حسبما حققه المؤرخون ، وذكر ما أدركه من مظاهر الإسلام في مالي من أفعالهم الحسنة ومواظبتهم على الصلاة وملازمتهم للجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ، وذكر عنايتهم بحفظ القرآن وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ولا تفك عنهم حتى يحفظوه ، ولم ينس ابن بطوطة أن يذكر علماء مالي في عهد منسا سليمان الذي جاء بعد منسا موسى وكان أكثرهم من المغاربة والبرابرة . منهم محمد بن الفقيه الجزولي ، وسعيد بن علي الجزولي شيخ المغاربة في مالي ، والحاج موسى الونغري سفير سلطان مالي إلى أبي الحسن ملك المغرب ، والعلامة أبو القاسم ابن رضوان والمقري عبد الواحد والقاضي عبد الرحمن .

مدرسة تلمسان التي أنجبت مئات من الأعلام ، ثم مدرسة تونس (الزيتونة) وهذه المدارس الثلاث ظلت ردحًا من الزمان تنافس الجامع الأزهر في مصر ، وكلها كانت تمد غرب أفريقيا

بالعلم حتى نبغ فيها العلماء ، وهذا كله من آثار المغاربة رغم كون البلاد اليوم قد توزعت في حدود مصطنعة فالمغرب هي المغرب ، وإن فات ذكرهم في سجل التاريخ فيكفي أن الإسلام لا يزال هناك ، وأن الدول والحكومات الإسلامية ظلت تتوالى ، وجاء بعد منسا موسى الذي عاش ١٢٠ عاماً ملوك مالي كثيرون إلى أن ضعفت وقامت بعدها ملوك سنغاي حتى أتى سنِ عَلِي وبعده أبو بكر التوري الشهير بأسكيا الذي جاء في عصره الإمام المغيلي إلى نيجيريا حوالي ١٤٦٠م .

والفترة التي بين منسا موسى وأسكيا محمد نحو مائة عام ونيف لم يسجل التاريخ أسماء الأعلام الذين خدموا الدعوة والثقافة في هذا العهد ، ولكننا عثرنا على أسماء الذين عاصروا المغيلي التلمساني وأخذوا منه حتى نبغوا ، جاء ذكرهم في تاريخ السودان للسعدي وفي تطريز الديباج للتمبكتي ، فليراجع .

الإمام المغيلي التلمساني

الإمام المغيلي كما وصفه أحمد بابا التمبكتي في نيل الابتهاج قال : إنه خاتمة المحققين وأحد أذكياء الدنيا الذين أُوتوا بسطة في العلم والتقدم في الفهم ، وهو منسوب إلى قبيلة مغيلة إحدى قبائل البربر في المغرب .

أخذ المغيلي علومه عن أعلام كثيرين من علماء المغرب منهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي علامة المغرب ، وعاصر المغيلي الإمام محمد بن يوسف السنوسي صاحب كتب العقائد السنوسية

فجرى بينهما مكاتبات ، لقي الإمام السيوطي وجرى بينهما مناظرة في تجويز علم المنطق من جانب المغيلي وتحريمه من جانب السيوطي ، دخل بلاد السودان وجال فيها مدة في مدينة كاشنة وكانو وتكدّا وأكدس وسنغاي ومالي ، ومن أشهر الذين أخذوا منه من أعلام السودان العاقب بن عبد الله الأنصمني الأكدسي، القاضي محمد بن أحمد التادلي الملقب بايدَ أحمد ، ومحمد بن عبد الجبار الفجيجي من مشاهير علماء المغرب ، هذا وقد تأثر بالمغيلي عدد من العلماء الذين اجتمعوا به وأخذوا منه ، كما تأثر به الذين أخذوا عن تلاميذه واحتفظوا برسائله وفتاويه ، ومن أولئك : الشيخ البكري البرناوي ، والشيخ سليمان الوالي التاركي ، إلى أن جاء أكبر مشائخ ابن فودي هو الشيخ جبريل ابن عمر الذي كان تلميذًا لأحد تلاميذ المغيلي .

ولذلك تأثر ابن فودي بفتاوى المغيلي ورسائله ، وهو الذي سجل علينا في مؤلفاته تلك الفتاوى والرسائل منها : رسالة المغيلي إلى سلطان أكدس ، ووصية المغيلي في أمور السلطنة لسلطان كانو محمد رُنفَا ، وأجوبة الفقير على أسئلة الأمير كتبها المغيلي لمحمد أسكيا الكبير سلطان سنغاي .

كل ذلك من آثار المغيلي الذي هو أحد علماء المغرب الذين لهم آثار في بلاد غرب أفريقيا وفي نيجيريا بالقرن العاشر الهجري .

هذا قليل مما نعلم وكيف بالكثير الذي لا نعلم فحدِّث عن البحر ولا حرج .

المبحث الرابع

الفرق بين سلفية المشرق وسلفية المغرب وتأثير نيجيريا بالأخيرة دون الأولى

السلفية : مذهب يقف موقف الصحابة والتابعين في كل نص أوهم التشبيه يؤمن به ويفوض معناه إلى الله ، وهي أيضًا مذهب يدعو إلى التمسك بالسنة واجتناب كل بدعة ليس لها أصل مستَنَدٌ في الشرع .

وكان الإمام مالك أول من صرح بمنع تأويل صفة الاستواء عندما سئل عنه قال : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

ثم جاء أحمد بن حنبل ووقف موقفًا صلبًا أمام فتنة القول بخلق القرآن على رأي المعتزلة بخلاف ما عليه أهل السنة من أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق .

ثم جاء الإمام أحمد بن تيمية وكان يكافح ضد الجمود الفكري ، فدعا إلى فتح باب الاجتهاد في الفروع إلى جانب حملاته على الصوفية ، وأخيراً جاء ابن الجوزي الواعظ الشهير وحمل عصاه على الفرق الإسلامية وبالأخص منهم الصوفية في كتابه تلبيس إبليس .

ويخيل إلى الكثير من الباحثين أن السلفية كلها مردها إلى الحنابلة المذكورين وغيرهم ، ولكننا لما تتبعنا آثار السلفية وجدنا هناك فرقا بين سلفية المشرق التي يتزعم حركاتها الحنابلة وبين سلفية المغرب التي يقودها المالكيون لما سنوضحه في السطور الآتية ، وحاش لله أن يفهم الناس من مقارنتنا بين مذاهب الشرق ومذاهب الغرب ، أننا نفرق بين الأصل وفرعه أو بين الشيخ وتلميذه ، ومعاذ الله أن يظن واحد أننا ننكر ما للشرق على الغرب من فضل السابقة والتقدم .

كيف ، والصحابة هم الذين حملوا لواء الإسلام من الجزيرة العربية إلى مصر ومنها إلى شمال أفريقيا ، وحملوا معها الكتاب والسنة .

وهذا أسد بن الفرات الذي خرج من تونس أو القيروان وتوجه إلى مصر ليتلقى من عبد الرحمن بن القاسم المصري تلميذ الإمام مالك موطأه ، ثم ليرجع إلى بلاده ينشر علوم الإمام مالك هناك .

وكذلك نرى عبد السلام الملقب بسحنون يخرج من القيروان إلى ابن القاسم المذكور ليجمع فتاوى الإمام مالك في كتابٍ سماه « المدونة الكبرى »، ولم يزل العلماء المغاربة يرتادون دور العلم والحكمة في مصر بالأزهر وجامع شيخو بالفسطاط ، كما ظل علماء تمبكتو وجنى يتوجهون إلى مصر للاستفادة من أعلامها ، فقويت الصلة بين الطرفين حتى زار الإمام السيوطي بلاد المغرب وغرب أفريقيا وجامعة تمبكتو وجنى وزار مدينة كانو وكاشنة وأكدس ، وإذا نحن ذكرنا الفرق بين مذهب الشرق ومذهب

الغرب في شيء من ذلك ومن غيره ، وإنما نريد إثبات ما كان يتمتع به رجال الفقه الإسلامي من حرية الاجتهاد المفتوح بين المشائخ وتلاميذهم تحت قاعدة « رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وقد وجدنا من تلاميذ الإمام مالك من خالفه في بعض مسائل فرعية كأصبغ وأشهب .

ولم يكن السلف يفرضون على الناس مذهبهم في المسائل الفرعية ، فقد امتنع الإمام مالك أن يقبل اقتراح الخليفة العباسي حمل الناس على الموطأ حسما لمادة الخلاف ، ولو قبل مالك الاقتراح لما ترك مجالا لمذهب الشافعي وغيره أن يظهر ، والإمام الشافعي كان له مذهبان أحدهما قديم بالعراق وثانيهما جديد في مصر . فلا غضاضة في اختلاف المذاهب والآراء في الإسلام .

أما الفرق بين الاتجاه السلفي في المشرق والاتجاه السلفي في المغرب فيتلخص في :

أولاً : إن أكثر السلفيين المغاربة كانوا من رجال التصوف ولهم زوايا وتكايا ومريدون وأوراد ولهم مؤلفات في التصوف ، على خلاف السلفيين المشارقة فإنهم باستثناء إسماعيل الهروي . خصوم التصوف والصوفية ، وأبو الفرج الجوزي معروف بذلك في تلبيس إبليسه وابن تيمية كذلك في أكثر كتبه ورسائله وابن عبد الوهاب النجدي كذلك ومن تبعهم كالشوكاني والأمير الصنعاني .

ثانيًا : كتب عبد المتعال الصعيدي في كتابه « التجديد والمجددون » عن تقصير الجوزي وتقصير ابن تيمية في محاربة سلاطين زمانهم على ما بلغوا من أسوأ الحال ، وأنهما لم يتكلما في إصلاح الأوضاع الاجتماعية كما تكلما في الصوفية والفقهاء والاجتهاد .

ذكر أبو الفرج كثيراً في الكلام على الصوفية كله كلام جيد يدل على عقلية مستنيرة ، وكان هو رجعيا جامدا فيما عدا هذه الناحية من التجديد إلى أن قال[١] .

وكان هو مع هذا على صلة حسنة بالملوك والأمراء الذين كانوا يأخذون على الصوفية الاتصال بهم ، وقد ألف لواحد منهم كتابًا سماه « المصباح المضيء في خلافة المستضيء » وكتاب « النصر على مصر » بمناسبة عودة الخطبة للعباسيين من الفاطميين ، فلم يسمع منه في إصلاح حكمهم شيئًا ولم يجتهد في جعل الحكم شوريا لا استبداد فيه ، كل هذا ونحوه قلل من شأنه في التجديد .اهـ.

أما ابن تيمية الملقب بشيخ الإسلام لمحاربته البدع ومقاومته الصوفية قال عنه الصعيدي[٢] :

وقد أحسن ابن تيمية فيما حاوله من إحياء روح الجهاد في المسلمين بعد أن ماتت فيهم ، بتغلب التتار عليهم ، وأحسن فيما حاوله من الإصلاح في التصوف الذي صار جهلاً وبطالة ، وأحسن

(1) التجديد والمجدودن ص ٢٤٠ .
(2) المرجع السابق ص ٢٦٤ .

فيما حاوله من فتح باب الاجتهاد في الفروع ، إلى أن قال : يؤخذ عليه أنه لم يحاول إصلاح طريقة الحكم في وقته وقد وصلت إلى أسوأ ما وصلت إليه في الإسلام اهـ .

أما سلفية المغرب وجميع الذين أخذوا منهم من علماء السودان فلهم أدوار ملموسة في الإصلاح الاجتماعي وإصلاح الحكم ، كما كان لعلماء الأزهر عبر السنين العديدة حتى ظهر فيهم الإمام الغزالي وعبد القادر الجيلاني وعز الدين ابن عبد السلام .

يقول الدكتور حسن محمد محمود في كتابه « انتشار الثقافة العربية بغرب أفريقيا »[1] : إن فقهاء المالكية في السودان الغربي كان شأنهم شأن فقهاء المالكية في المغرب ، يتزعمون المجتمع ويدافعون عن حقوق الناس ويثورون على الظلم ويجهرون بنقد الحكام وتجريحهم ، فكان ولاة مراكش وبشاواتها كلما سمعوا نقدًا وتجريحًا أو رأوا خروجا عن طاعتهم تكلموا بالعلماء والفقهاء . اهـ .

وكان الجامع الأزهر بمصر أوحى إلى القرويين بفاس والزيتونة بتونس أن يسير الجميع على وتيرة واحدة في الاتجاه السلفي الصوفي والنصح للأمراء والسلاطين .

فما من عالم من علماء المغرب والسودان الغربي إلا وهو سلفي مالكي صوفي داعية إلى الله .

ومنهم من دعا الملوك الكفار ولاطفوهم حتى أسلموا ، ومنهم من قاوموا أولئك الملوك بالجنود والعتاد حتى انتصروا

---

(1) انتشار الثقافة العربية بغرب أفريقيا ص ٢٥٤ .

أو استشهدوا ، ومنهم من استعمل الحكمة والموعظة الحسنة مع أولئك الملوك ولم يستعجل في أمرهم حتى هداهم الله أو هدى أولادهم وذريتهم للإسلام .

وقد ذكر السلطان بللو في إنفاق الميسور :

إن الشيخ الوالي التاركي مكث مدة في بلاد يَاُوري ما بين زمفرة ونوفي ، وظل يدعو سلطان يَاوري إلى إقاَمة العدل والشريعة ، فقبل السلطان منه وطلب إليه أنَ يكتب له النصائح عند إرادته مغادرة بلاده .

وهذا الشيخ نفسه هو الذي قتله سلطان برنومَايْ عُمَر لما قام بالإرشاد في بلاده ، فاتهمه السلطان أنه يشتت عليه رعيته فقتله .

وهناك في بلاد يوربا عدد لا يستهان به ممن قام موقفا صلبا في سبيل الله حتى نصرهم الله بالغلب أو بالاستشهاد ، كل ذلك مما ورثوه من مشائخهم المغاربة رحم الله الجميع .

ومما يباهي به المغرب على جميع الحكومات والدول الإسلامية أنه لم يسجل التاريخ خَبَر ملك أو سلطان أو أمير أو خليفة في المغرب اضطهد عالما من العلماء أو فقيهًا من الفقهاء أو واظعًا من الوعاظ ، وربما حدث بين عالم أو خليفة خلاف فرعي في بعض المسائل ، ولكنه لم يصل في يوم من الأيام إلى درجة الاضطهاد .

بل المشهور عن الجميع أن الخلفاء والأمراء كانوا يسيرون على هدى وإرشاد من أولئك العلماء والفقهاء ، على مثل الصورة التي نراها اليوم في شخصية الملك الحسن الثاني أطال الله بقاءه وأعانه على ما أولاه .

السلفيون المغاربة كلهم صوفيون

نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر ، عددًا من الدعاة الذين نشروا الدعوة والثقافة في المغرب وفي غرب أفريقيا ، لكي يتم تحقيق القول بأنهم سلفيون مالكيون صوفيون ، فنقول :

أولا : عبد الله ابن ياسين الذي قاد الحركة المرابطية وتألف من أتباعه جنود صاروا قوادًا في غزواتهم وملوكًا بعد تأسيس دولهم ، يوسف ابن تاشفين ويحيى بن إبراهيم وأبو بكر بن عمر هم الذين قاموا بحمل راية الجهاد وحركة الإصلاح وإقامة السنن بالمغرب والسودان الغربي (نيجيريا).

ثانيًا : ثم جاء دور الفقهاء والمحدثين يدعون إلى الاتّباع وينهون عن الابتداع وتلك مهمة السلفيين ، وأولهم الإمام يوسف ابن عبد البر القرطبي المغربي ٤٦٤هـ في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » ما يعبر عن موقفه السلفي في كل شيء .

ثالثًا : ثم جاء القاضي عياض الذي عاش ما بين ٤٧٦-٥٤٤هـ وهو صاحب كتاب « الشفا في حقوق المصطفى » وهو كتاب يعبر عن اتجاهاته السلفية في إحياء السنن وإخماد البدع .

رابعًا : ثم جاء بعده أبو مدين شعيب المغربي المتوفى ٥٩٣هـ إمام جميع رجال الصوفية في الشرق والغرب .

خامسًا : ثم جاء بعده عبد الله بن سعد بن أبي جمرة المتوفى ٦٧٥هـ له « مختصر البخاري » وهو شيخ العلماء الذين أتوا من بعده في إحياء السنن .

سادسًا : ثم جاء بعده تلميذه أحمد بن الحاج المغربي الذي اشتهر بكتابه «المدخل» وقد اقتفى أثر شيخه أبي جمرة في محاربة البدع .

سابعًا : ثم جاء بعده سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» المتوفى ٨٧٠هـ وهو غني عن التعريف .

ثامنا : ثم جاء بعده أحمد زروق ٨٤٦ – ٨٩٩هـ صاحب كتاب «قواعد التصوف ، وعمدة المريد ، والنصيحة الكافية».

تاسعا : ثم جاء بعده أحمد بن المبارك الذي تتلمذ للشيخ عبد العزيز الدباغ وقد جمع فتاوى الدباغ في كتابه «الإبريز» ١١٢٩هـ .

عاشرًا : ثم جاء أبو إسحاق الشاطبي صاحب كتاب «الاعتصام» المشهور وقد عاش إلى ١٢٨٨هـ .

وهؤلاء كلهم مالكيون أشعريون صوفيون سلفيون دعاة ، وهم الذين تأثر بهم علماء نيجيريا وغرب أفريقيا في سلفيتهم إلى يومنا هذا ، كما تأثر المغاربة بالسلفيين المالكيين والشوافع والحنفية دون الحنابلة رحم الله الجميع .

المبحث الخامس

بين عثمان بن فودي
ومحمد بن عبد الوهاب

لقد قرأنا في عدة كتب حديثة زعما ، في العلاقة بين الدعوة الوهابية وبين دعوة ابن فودي ، وبحثنا عن مصدر هذا الزعم فلم نعثر على مصدره غير ما جاء في كتاب الدعوة إلى الإسلام للكاتب الشهير توماس أرنولد[1]، وهو رجل اعترف بفضله جميع الكُتَّاب الذين أتوا من بعده لأنه كتب ونشر مكتوبه ١٨٩٧م ، ونظن أنه هو أول من افترض هذا الزعم فصار الذين ينقلون عنه يعتمدون عليه ، وإن كانوا لا يذكرونه كمرجع لهم في ذلك . ولكن تقدم الرجل على كثير من المستشرقين وطول باعه وتتبع آثار الدعوة وتاريخها في أنحاء العالم في نهاية القرن التاسع عشر (الميلادى) جعل الناس يأخذون قوله على عواهنه جزافا من غير قيد ولا بحث جديد .

---

(1) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٠ .

فها ، أنا ذا أنقل هنا معنى كلامه الوارد في كتابه المذكور ، قال : إن الشيخ عثمان بن فودي قد ذهب إلى الحج فعاد مليئًا بالحماسة والغيرة من أجل الإصلاح والدعوة إلى الإسلام ، وقد تأثر بمبادئ الوهابيين الذين كانت قوتهم آخذة في النماء في الوقت الذي زار ابن فودي مكة المكرمة فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم من مات من الأولياء واستنكر المبالغة في تمجيد النبي . اهـ .

ولا نعرف مصادر هذه الدعاوى إذ لا أحد أنكر الصلاة على روح الميت ، ولا أحد أنكر تعظيم من مات وإنما أنكروا عبادة قبره ، ولا أحد أنكر تمجيد النبي ﷺ إذ لا تمجيد أعظم من الصلاة عليه ، وقد أمر بها القرآن في قوله ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا** ﴾ . ولا أحد أنكر الصلاة على روح الميت فصلاة الجنازة أول صلاة على روح الميت ، ودعاء الولد لوالديه مأمور به بقول القرآن ﴿ **وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ (الإسراء: ٢٤) ، ودعاء المسلمين لمن سبقهم مطلوب بنص القرآن ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ (الحشر: ١٠) .

هذه أمور عامة وبقي أمور خاصة بابن فودي لا ينبغي السكوت عنها ، بل يجب ردها إلى الصواب والحقيقة الواقعة ،

أولا : قبل كل شيء لم يكتب الله لابن فودي حجا ولا عمرة ولم يدخل بلدًا من بلاد العرب لا في المشرق ولا في المغرب .

ثانيًا : لم يذكر ابن فودي ولا أخوه عبد الله ولا ابنه محمد بللو لم يذكروا إطلاقا في كتبهم اسم محمد بن عبد الوهاب الذي كان معاصرًا لهم ، ولم يقولوا إنهم عرفوه أو سمعوا عنه أو قرأوا له.

وقد عرف ابن فودي بالإسناد وأمانة النقل بما لو كان متصلاً بدعوة ابن عبد الوهاب أو بكتبه لعزى إليه كما عزى إلى السيد محمد المختار الكنتي الشنقيطي الذي كان معاصرًا له في المغرب، وكان ابن فودي يذكر دائمًا اسم المغيلي وأبي جمرة وابن الحاج وأحمد زروق ويعتمد على كتبهم وفتاويهم .

إن مذهب ابن فودي يختلف تمامًا عن مذهب ابن عبد الوهاب حسب اختلاف أصول مذهبيهما الفقهي والعقائدي ، وحسب اختلاف مشربيهما بأمور كثيرة .

أولا : ابن فودي مالكي يتمسك بآراء علماء المالكية خصوصًا منهم المغاربة ، وأن ابن عبد الوهاب حنبلي المذهب ولا يعمل بهذا المذهب في المغرب ولا في نيجيريا .

ثانيًا : إن ابن فودي أشعري العقيدة فهو يحتج بأقوال السنوسي في عقائده الصغرى والوسطى والكبرى ، وهذه الكتب ممزوجة بأبحاث علم الكلام والفلسفة .

وابن عبد الوهاب سلفي العقيدة لا يؤمن بتأويل الصفات ولا يطلق على الله ما يطلقه الأشاعرة من الصفات .

والحنابلة جميعًا يذمون علم الكلام والفلسفة على الإطلاق .

ثالثًا : إن ابن فودي إجماعي الحجة يحتج بإجماع العلماء ويعتد به كأصل من أصول الشرع الأربعة التي هي الكتاب والسنة والقياس (الرأي) والإجماع بالإضافة إلى أصول أخرى للتشريع .

أما ابن عبد الوهاب فلا يعتد بإجماع الفقهاء بل يعمل بما يروى عن ابن حنبل الذي كان يقول « من ادعى الإجماع بعد الصحابة فهو كذاب » .

وقلما يعمل بالقياس والرأي ، إن وجد الحديث الضعيف عمل به وإن لم يجد توقف .

رابعا : إن ابن فودي يعمل بالتوسل بالأنبياء والأولياء ويسأل الله بالجاه النبوي ، وذلك طافح بكتبه منها ما جاء في مدائحه للنبي :

إني عديم بالخطايا مكثر
لا ملجأ إلا لجاه محمد

وما جاء في توسله بالشيخ عبد القادر الجيلاني :

يا رب عالم باطن كالظاهر
أجب الذي يدعو بعبد القادر

وأن ابن عبد الوهاب يمنع ذلك منعًا جازمًا ويكرهه كراهة تحريم وربما عده بعض أتباعه شركا ، وقد منع ابن عبد الوهاب قراءة دلائل الخيرات والبردة وأمثال العشرينيات في المدائح النبوية ، وابن فودي يلازم هذه الأشياء ، وقد ذكر ابنه محمد بللو أن الله تعالى فتح على أبيه عثمان بن فودي بملازمته دلائل الخيرات .

خامسًا : أن ابن فودي كان يستعمل المنطق اليوناني ، فقد درسه على علماءه كما درسه منه تلاميذه واشتهر على أيديهم رجز المغيلي في المنطق .

وابن عبد الوهاب ينهي عن علم المنطق حسب رأي ابن تيمية وابن القيم وغيرهما .

سادسًا : إن مما يؤكد عدم اتصال ابن فودي بالدعوة الوهابية هو قيام ابن فودي في نيجيريا قبل انتشار دعوة ابن عبد الوهاب في الحجاز ولم تدخل الوهابية مكة إلا في ١٢١٨هـ .

وذلك هو التاريخ الذي بلغت فيه دعوة ابن فودي ذروتها ودخلت مع ملوك هوسا السبع في الجهاد حتى انتصر عليهم الواحدة بعد الأخرى .

وإذا كان قيام ابن عبد الوهاب ١١٥٣هـ في نجد وكان قيام ابن فودي للدعوة في نيجيريا ١١٨٠هـ ، فليس بين انتشار الدعوة

الأولى لابن عبد الوهاب وبين الثانية لابن فودي مدة كافية لاقتباس الأخيرة من الأولى لبعد المسافة وعدم توفر المواصلات ووسائل النشر في ذلك الزمان ، بالإضافة إلى أن ابن فودي لم يحج إلى مكة ، كان علماء الحرمين قد وقفوا موقفًا سلبيًّا أمام الدعوة الوهابية عند دخولها الحرمين .

ومن أواخر أولئك العلماء الأعلام أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية بمكة المكرمة في زمانه ، قد ألف كتبًا في الاعتراض على الوهابية ونقلها الحجاج إلى بلادهم .

وكان ابن فودي يعتقد أن زيارة قبر النبي محمد عبادة وقربى ، لذلك كان يشتاق إلى المدينة شوقًا حارًّا ويعلنه في قصائده لمدح النبي ومن ذلك قوله :

هل لي مسير نحو طيبة مسرعا

لأزور قبر الهاشمي محمد

وهذا يخالف تمامًا مذهب ابن عبد الوهاب وشيخه ابن تيمية اللذان يحرمان زيارة القبور ويقولان إنها عبادة لها ، لحديث « لا تجعلوا قبري وثنا يعبد » وحديث « لعن الله بني إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، لقد تكلم العلماء في هذين الحديثين وقالوا لم يعرف بنو إسرائيل قبر نبي لهم حتى يعبدوه، كما تكلموا في أمر قبر النبي ومسجده وقالوا : كيف يفرق

ابن تيمية بين مسجد الرسول المأمور بشد الرحال إليه ضمن المساجد الثلاثة «المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى» وبين قبره عليه السلام إن كان يحرم زيارة القبور .

كل ذلك دليل قاطع على أن ابن فودي لم يقتبس من ابن عبد الوهاب دعوته كما زعم توماس أرنولد ومن أخذ منه وحذا حذوه ، وإنما أخذ من مشائخه الذين تلقوا علومهم من المغاربة ومن المصريين الصوفيين .

ها هنا جف القلم والسلام عليكم ورحمة الله .

الخاتمة

بعد تقديم تلك الفذلكة يلزمني أن أختم حديثي بشكر أصحاب الفضيلة أساطين العلم وأراكين الأدب على استماعهم للهجتي التي تطفلت بها على موائدهم ولهجتي أقرب إلى العجمية منها إلى العربية ، فلا غرو إذا قيل إن الأعاجم من أصحاب رسول الله كانوا يعانون لكنة أعجمية في لسانهم طوال حياتهم ، فكان صهيب الرومي يعاني لكنة رومية وسلمان الفارسي يعاني لكنة فارسية وبلال الحبشي يعاني لكنة حبشية .

هذا كله من جهة الألفاظ ، فإن كنت قد جانبني الصواب فقد اجتهدت غاية جهدي .

أما ما يتعلق بجهات العبارة فإن كنت قد أصبت بعض الإصابة فيما رميت إليه فرمية من غير رام أو هي بضاعتكم ردت إليكم ، ويتحتم عليَّ من باب العقل والشرع أن أشكر أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني على دعوتي للمشاركة وعلى استماع جلالته لما أبوح به مما في وطابي على عِلاته .

أسأل الله أن يسدد خطاه وأن يعينه على ما أولاه .

الفهرس